الفصل الحادي عشر

نظرية المعني

تمهيد

لقد رأينا فى التأثير المتبادل أن العلة تصبح معلولا وأن المعلول يصبح علة ويجبألا نفهم ذلك بواسطة أمثلة اختبارية . فعلى الرغم من أن الشمس تؤثر على الأرض ، وأن الأرض تؤثر على الشمس فان الأرض والشمس لا يصبحان شيئا واحدا . ذلك أن الشمس والأرض هما أكثر من مجرد علة ومعلول . فمفهومها يضم عناصر مادية كثيرة . ولنفهم فكرة هيجل علينا أن ننظر إلى العلة المحضة وإلى المعلول المحض . والأمر هنا كالأمر فى وحدة الوجود والعدم . فإن هذه الوحدة لا تعنى أن الموجود الجزئى العين (كالقلم) هو لا شىء . وهنا علينا أن ننظر إلى «العلية» فى العلة ، لا إلى الشىء الذى هو علة . وعندها نرى أن هذه العلية واحدة فى العلة والمعلول .

لقد وصلنا إلى فكرة موجود يتصف بأنه حين ينتقل الى ضده إنما ينتقل إلى ذاته . وهذا هو تعريف المعنى . نفى التأثير المتبادل أ تُعين ـ وكذلك ب تعين أ . وهذا يعنى أن أ تعين نفسها .

هكذا يتم الاستنباط الجدلى لمقولة المعنى . ولكن قد يقال هنا إننا نعرف المقصود من مقولات الكيف والكم والجوهر والعلة ، فما هو المقصود من مقولة المعنى ، ويرجع مثل هذا القول إلى أن مقولات «كانْت» المعروفة لم تكن تضم مثل هذه المقولة . ذلك أن مقولات الوجود عند هيجل تقابل إلى حد ما مقولات الكيف والكم عند كانْت . ومقولات الماهية تقابل عند كانْت مقولات الإضافة والجهة . ولكننا لا نجد عند كانْت مقابلا لمقولات المعنى . إن اكتشاف المعنى يمثل جانب الجدة فى فلسفة هيجل .

لقد كانت مقولات الوجود مباشرة أى مستقلة . وكانت مقولات الماهية غير مباشرة أى ان كل واحدة تتوسط الأخرى . أما مقولة المعنى فهى تتوسط ذاتها، أى تعين ذاتها بذاتها . إن المعنى هو تأليف المباشرة واللامباشرة . وسوف تتضح فكرة المعنى عند الانتهاء من استنباط مقولات هذه الدائرة . ويكفى أن نقول الآن إن المقولة فى دائرة المعنى تتعين بضدها . وأن هذا الضد هو المقولة نفسها ، أى انها تعين ذاتها .

ونورد هنا ثلاث ملاحظات عامة تتصل بهذه المقولات . (١) الوجود يمثل وجهة نظر الإدراك ، والماهية تمثل وجهة نظر الفهم ، اما المعنى فيمثل وجهة نظر العقل . (٢) إذا كانت الماهية دائرة الضرورة فان المعنى هو دائرة الحرية . ذلك أن التعيين الذاتى هو الحرية . فالضرورة تعنى أن الشىء يتعين بغيره . وبانتقالنا من التعيين بالغير إلى التعيين بالذات ننتقل من الضرورة الى الحرية. وهذا ما يقصده هيجل بقوله : إن حقيقة الضرورة هى الحرية . (٣) إن الفكر فى دائرة المعنى يصبح لا متناهيا . وهذا ينتج من فكرة التعيين الذاتى . فالفكر المتناهى يتحدد بضده . أما إذا لم يكن هناك ضد يغايره فالفكر يكون غير محدود أى غير متناه . وسيتضح ذلك عندما نصل إلى مقولة الفكرة المطلقة .

وتقع مقولات المعنى فى ثلاث مراحل .

١ – المعنى الذاتى .

٢ – المعنى الموضوعى ، أو الموضوع .

٣ – الفكرة .

المعني الذاتـي

ينقسم المعنى الذاتى إلى ثلاثة أقسام : (١) المعنى بوصفه معنى ، أى المعنى فى ذاته . (٢) الحكم أو المعنى خارج ذاته . (٣) القياس أو المعنى لذاته.

ان هذا الجزء من منطق هيجل يعالج الموضوعات التى يعالجها المنطق

الصورى ولكن بينما كان منطق أرسطو اختباريا نجد أن منطق هيجل يحاول ان يكون عقليا ذلك ان كتب المنطق الصورى تخبرنا ان هناك فى الواقع أنواعا من القضايا أو الأحكام وأشكالا من الاقيسة . ولكنها لا تبين لنا لماذا كان الأمر على هذا النحو . فهى ترى أن وجود اربعة أشكال للقياس أمر نلاحظه بالاختبار كما نلاحظ وجود خمس قارات فى الأرض . ولذلك يقول هيجل إن المنطق الصورى منطق اختبارى ، أى غير عقلي فهو يعطى أسوأ مثال عن خضوعه لما يقرره فى دروسه من حقائق عقلية .

أما معالجة هيجل لهذا الموضوع فهى تتبع المنهج الجدلى . فأنواع القضايا والأقيسة لا تقرر تقريرا وإنما تستنبط استنباطاً. وهذه الطريقة هى وحدها التى تليق فعلا بعلم هو علم العقل نفسه .

١ - المعني بوصفه معني

أ - الكلي : المعنى وحدة الضدين : إنه الهوية المطلقة . هذه الهوية هى الكلى، بل إن الكليات الحسية نفسها كالانسان والقلم الخ ... تشير إلى ما هو واحد فى الأنواع المختلفة .

ومع ذلك فان كلية المعنى هنا تختلف اختلافا أساسيا عن المفهوم الدارج للكليات إن المعنى هنا يختلف عن مقولة الهوية التى رأيناها فى دائرة الماهية. فالهوية كانت مقولة مجردة تقابلها المقولة المجردة للاختلاف . أما هنا فالمعنى هوية تحتوى على ضدها فى ذاتها . إنها هوية مشخصة .

ب - الجزئي : بما أن المعنى يعارض ذاته بذاته ، فهو يعين ذاته بذاته، أى ينفى ذاته بذاته لأن كل تعيين فهو نفى أو سلب . إن عنصر النفى هذا هو الفصل النوعى الذى يحدد الجنس الكلى . وهذا التعيين يقودنا إلى مفهوم الجزئى. فالمعنى هو هوية الضدين : الكلى هو جانب الهوية ، والجزئى هو جانب التعارض .

٣ - الفـــردي

الفردى هو وحدة الكلى والجزئى . ذلك أن المعنى الذى تحول إلى ثنائية . عاد فنفى هذه الثنائية ، وأصبح مرة اخرى وحدة معينة بواسطة الجزئى .

إيضاحات : الكلى والجزئى والفردى مراحل ثلاث فى مقولة واحدة هى مقولة المعنى . وكل مرحلة تتحد بغيرها . ذلك أن من خصائص المعنى أنه يتعين فى مراحله أو عناصره ولكنه لا يكف عن أن يكون فى هوية دائمة مع ذاته.

يجب أن ننتبه دائما إلى أن المعنى يختلف عن «التصور» فالتصور يستبعد من ذاته الجزئى والفردى (مثال الإنسان) . أما المعنى فهو كلى مشخص يضم فى ذاته الكلى والجزئى .

فمثلا : «الانسان الذى الف هذا الكتاب» هو فردى. «الانسان» كلى والذى الف هذا الكتاب «جزئى . فالكلى «إنسان» يستبعد كل تعيين جزئى . لهذا فهو مجرد فارغ . ولكن الأمر فى المعنى مختلف . فهو كلى فى جانب من جوانبه وجزئى فى جانب آخر . والكلى الذى هو فى الوقت نفسه جزئى يصبح فرديا. إن المعنى إذن ليس تجريدا ولكنه مشخص كل التشخيص . وإذا كان تصور الإنسان والقلم يعطينا مثالا على الكلى المجرد فإن مقولات المنطق تمثل المعانى الصحيحة . فالوجود كلى صحيح لأنه ينتقل إلى اللاوجود ثم إلى الصيرورة . ومن هنا نفهم قول هيجل إن الوجود هو المعنى على هيئة ضمنية . ولكن المعنى من حيث هو معنى قد ظهر فى هذه المرحلة من استنباط المقولات .

ونشير أخيرا الى أن المقصود بالمعنى الذاتى هو الذاتية أو الفكر ، أى التصورات والأحكام والأقيسة . إنه يقابل صورة المعرفة عند كانْت ، أو جملة المقولات . ولكن المقولات الكافية لا توضح لنا كيف انبثقت عن الفكر . أما عند هيجل، فالمعنى كلى مشخص . إنه يضم جميع المقولات بل هو عينه جميع المقولات.

القسم الثاني
الأحكـام

المنطق الصورى يقرر وجود أحكام الى جانب التصورات . ثم هو يصنف هذه الأحكام دون أن يبين الضرورة العقلية فى هذا التصنيف . أما طريقة هيجل فمختلفة . إنها تستنبط المقولات استنباطا عقليا . وهى هنا تستنبط الحكم من المعنى ، كما يستنبط القياس من الحكم .

المعنى إذن ينتـقل بالضـرورة الى الحكم . إن الحكم ينشـأ عن النظر إلى جوانب المعنى ، أى إلى الكلى والجزئى والفردى، على أنها مستقلة . فلسنا نحن الذين نقيم التمايز داخل المعنى . إن المعنى نفسه هو الذى يصبح حكما. فما كان مضمرا فى المعنى أصبح صريحا فى الحكم . فكل حكم يقرر اختلاف عناصر المعنى ووحدة هذه العناصر . ففى الحكم «هذه الصورة حمراء» نجد أن «هذه الوردة» تشير إلى الفردى ، بينما تشير «حمراء» إلى الكلى . فالمضمون المنطقى للقضية هو إذن : الفردى هو الكلى .

فنحن هنا بازاء اختلاف الفردى عن الكلى ، وبازاء وحدتهما التى تظهر فى الرابطة .

ونحن نجد عند أرسطو أن كل موجود فردى فهو مزيج من المادة والصورة. ولكن المادة هى الجزئى والصورة هى الكلى . وهذا يوضح قول هيجل : إن كل شىء هو معنى . الأمر الذى يقودنا الى القول : كل شىء هو فكر . ولكن هذه النظرة هى نظرة الفلسفة لا نظرة العلم . وبما أن كل مقولة فهى تعريف للمطلق . فقد وصلنا إلى القول بأن المطلق هو فكر أو هو ذات . وصور الفكر التى هى المعنى والحكم والقياس هى إذن صور كل واقع وصور المطلق نفسه .

وتناقض هذا الحكم يقودنا إلى دائرة جديدة . ففى الحكم اللامتناهى . الموضوع يستبعد المحمول. ولكن الاستبعاد نوع من العلاقة ، وهنا نصل إلى حكم المحمول فيه يعبر عن علاقة الموضوع بشىء يغايره . هذه العلاقة مع «الغير» أو الآخر بصورة عامة هى التى يعبر عنها حكم التأمل . فالمحمول فيه،

عوضا عن أن يكون معبرا عن كيف كالاحمرار او الحرارة يعبر عن صفة كالفائدة او الخطورة . فمثل هذه المحمولات تعبر عن علاقة الموضوع بأشياء مغايرة له ، أو بالعالم بصورة عامة . فإذا قلنا : هذا البيت مفيد ، فقد ربطنا البيت بالحاجات الانسانية . واذا قلنا : هذا الجسم ثقيل ، ربطنا الجسم بجاذبية الأرض ، ولأن هذه الأحكام تعبر عن النسبية ، وعن ترابط الاشياء ، أى لأنها تقابل دائرة الماهية ، سميت أحكام التأمل . وأحكام التأمل هى : الحكم الفردى والحكم الجزئى والحكم الكلى ، التى تقابل أحكام الكم عند «كانْت» . أما أحكام الضرورة فهى الحكم الحملى والحكم الشرطى المتصل والحكم الشرطى المنفصل. وهى الاحكام التى تقابل أحكام الاضافة عند «كانْت» . وتأتى أخيرا أحكام المعنى وهى الحكم التقريرى والحكم الاحتمالى والحكم الضرورى ، لأنها تقابل أحكام الاضافجة عند «كانْت» .

ثم ينتقل هيجل الى القياس . فيذكر فى القياس الكيفى الشكل الأول والثانى والثالث والقياس الرياضى . ويذكر فى قياس التأمل قياس الكل وقياس الاستقراء وقياس التمثيل .

ويذكر أيضا فى قياس الضرورة القياس الحملى والقياس الشرطى المتصل والقياس الشرطى المنفصل .

وإننا نوجز بقية نظرية المعنى كما يلى :

الموضـــوع

إن المعنى يصبح موضوعا على ثلاثة أشكال :

١ – الآلية وفيها توضع الاشياء بعضها إلى جانب بعض .

٢ – الكيمائية وفيها تتجاذب الاشياء وتتداخل .

٣ – الغائية وفيها توجه الغايات نشاط الاجزاء

الفكـــرة

إن الغاية تفضى الى الفكرة التى هى أعلى تحديد للمطلق . الفكرة هى وحدة الذات والموضوع ، وحدة النفس والجسم ، وحدة المتناهى واللامتناهى .

مقولات المعني

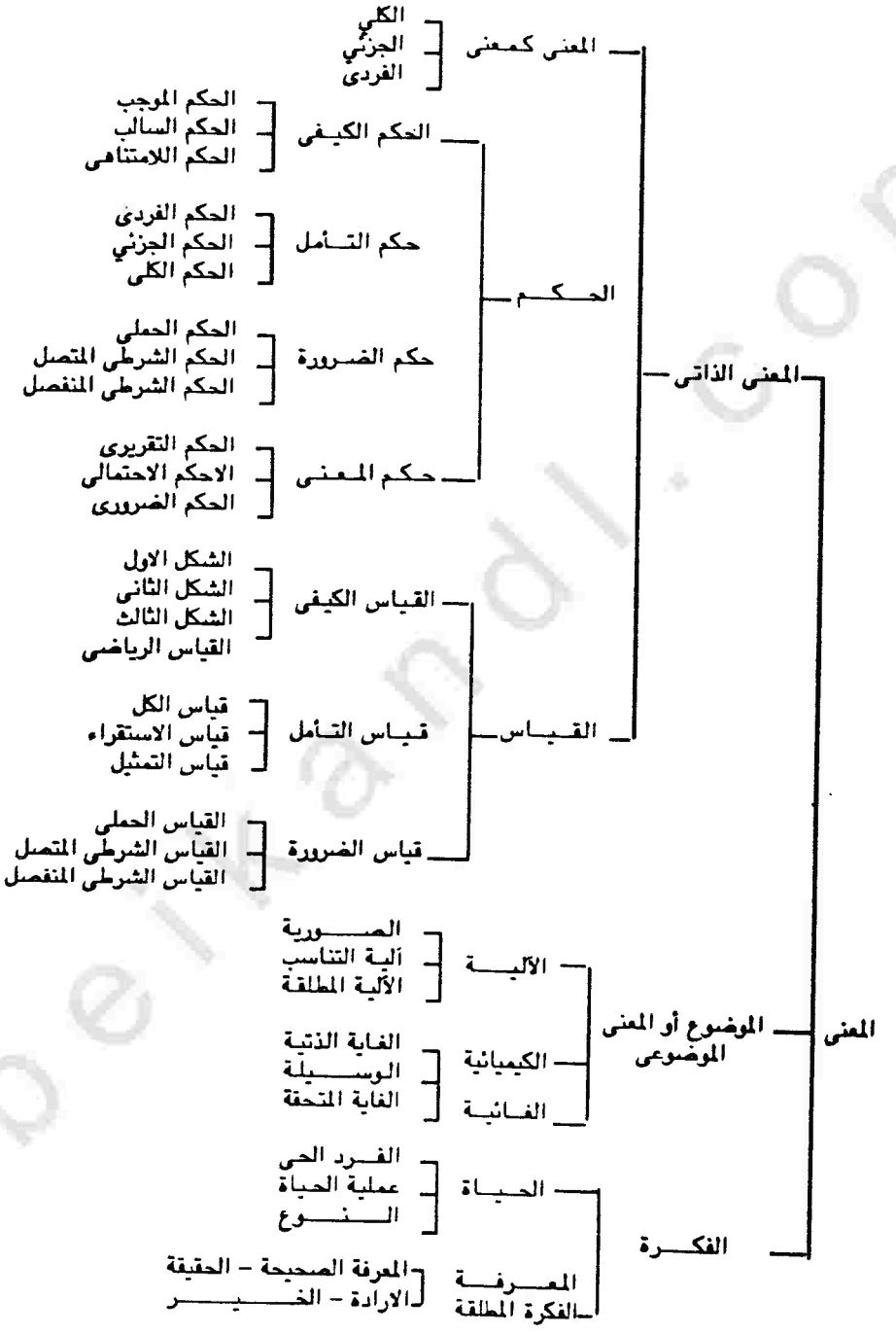

وللفكرة ثلاثة صور :

(١) صورة الحياة

(٢) صورة المعرفة والخير .

(٣) الفكرة المطلقة .

والفكرة المطلقة هى وحدة الفكرة النظرية والفكرة العملية . إنه العقل وقد وصل أخيرا إلى وعى ذاته والذى إذ يعقل ذاته يعقل كل شىء بالضرورة . فالفكرة المطلقة هى الوحدة الأخيرة لجميع التعيينات السابقة وعندها تنتهى الحركة الجدلية التى ابتدأت من مقولة الوجود المحض . فهى الوجود وقد وصل إلى اكمل تعييناته . وبهذا المعنى تبدو النتيجة الأخيرة للجدل . ولكن الفكرة المطلقة من جهة أخرى هى التى كانت تضم سلسلة المقولات جميعا . ذلك أن هذه المقولات لا تكف عن أن ينفى بعضها بعضا إلا عندما نصل إلى الفكرة المطلقة . فكل مقولة هى بمعنى ما فكرة ، ولكنها لا تأخذ صورتها الكاملة إلا من الفكرة المطلقة .

إن المنطق أو علم الفكرة ليس غريبا عن موضوعه فهو الفكرة نفسها بوصفها تصل إلى وعى ذاتها وتتجلى كتلقائية مطلقة . إنه ليس معرفة متناهية جائزة تدرك فيها الذات موضوعا محددا ، ولكنه الذات التى تعقل المنطق تعقل نفسها كذات مطلقة . وهكذا تنتهى إلى محو التعارض بين الذات والموضوع وبين المادة والصورة .

ونشير أخيرا إلى أن مقولات المعنى جميعا هى التى تفسر لنا الطبيعة والفكر، وهى التى تضم بشكل مضمر الأجزاء المختلفة للمذهب .

بهذا ينتهى استنباط المقولات فى المنطق . ومنه ننتقل إلى عرض موجز لفلسفة الطبيعة ومن ثم إلى فلسفة الروح .